الجمعيات الثقافية والفكر المعلّب

لا شك بأن عددا كبيرا من ابناء هذا الوطن، بات يتساءل ما اذا كان لبنان حقا بلد الانفتاح والفكر الحر كما اطلق عليه!... اذ ان واقع معظم مراكزه الثقافية يشير الى فكر معلب وانفتاح مزيف. وفي حين اننا نعول على الجمعيات الثقافية للقيام بنهضة اجتماعية وعلمية، نرى ان معظمها سار ويسير في ركب تيار القوقعة الفكرية...!

هذا ما تبين من خلال تجارب شخصية، حيث اتضح لي وكأن غالبية الجمعيات الثقافية أصبحت خاضعة هي الاخرى «للخصخصة»... ان من ناحية المواضيع التي يتوجب عليها طرحها وان من جهة «المحاضرين» الذين يفرضون عليها او يفترض الالتزام بهم! (ربما بضغط من الممولين لتلك الجمعيات او تحت تأثير «الواسطة»، او لان الجمعية مسيسة او تابعة لتنظيم معين). خلاصة القول، هي تبعية هذه الجمعيات لفئات او اشخاص تأبى الانفتاح مؤثرة الانغلاق... واضعة نفسها بحكم من يخشى مواجهة افكار الآخرين، ولعل مرد ذلك يعود لعقم فكري يفاضل المحدودية على الشمولية... وان كان بعض المسؤولين في هذه الجمعيات يؤازرون الحرية الفكرية وإنما ما زالوا قاصرين عن التحرك خارج حدود التبعية، فلهؤلاء نقول، ان الحرية الفكرية ليست نظريات او تمنيات او شعارات وإنما عمل فعلي وممارسة هادفة، هي مبدأ لا يساق وفكر منفتح على مداه الايجابي!.

للجمعيات الثقافية المنفتحة على كل التيارات الفكرية دور مهم ولعله الاهم في رفع مستوى الوعي العام، ان على صعيد تحمل مسؤولية تثقيف المجتمع، وان من خلال صهر فئاته الاعمق شرذمة والأكثر تعددية، صهرها بغية ايصالها للتخاطب بلغة واحدة، هي لغة الادراك السليم والحوار البناء... فهذه اللغة، وان تناقضت الآراء في ما بينها تبقى التعبير الارقى، وان تفاوتت وجهات نظرها فاهدافها فكرية غير شخصية، فلا خلاف ولا صراع في حضور الفكر وإنما حوار ومناقشة. فالفكر ما كان يوما حكرا على احد ولا اسير الجمود! ولذا مهما تعددت لغته وتنوعت، يبقى للتعددية هذه هوية واحدة، هوية يحملها كل انسان هي هوية الانفتاح على الآخر...!

نحن بحاجة إلى من...! يحول الهالة البشرية الطاغية الى هالة انسانية، فيتطلع ويعمل في ضوء الفكر الانساني النبيل، لا الفكر المتقوقع! «من»...؟ انت وهو وهي... فالتغيير يبدأ اولا وأخيرا بثورة الفرد على نفسه ضد التقاليد البالية، الفئوية، العنصرية، التبعية الخ... وإلا ستبقى الثقافة ضحية الجهل والفكر سجين التعصب والانغلاق...

«إصلح نفسك يصطلح العالم» قول مأثور، فيه اشارة واضحة بأن تحول المجتمعات و«الوطن والعالم يبدأ من الافراد، من الانسان نفسه... فلعل، ادراكنا لحاجة مجتمعاتنا الى التحول والتغيير يدفعنا للبدء بثورة فردية فكرية، ان كنا فردا في مجتمع، في مؤسسة، في جمعية، او في اي مكان آخر.

لا شك بأن التاريخ بمجمله صنع من قبل الانسان، وانما تبقى محطاته الخالدة نتاجا من ابداع الفكر الحر، المتجدد والمنفتح. فإن شئنا او أبينا، جمعيات كنا، ام مؤسسات ام افرادا مواكبة الانفتاح البناء والفكر الهادف، من المهم ان نعي ويعي معنا من لا يزال غارقا في التقوقع، بأن الفكر الحر لا يحصر بزمان ولا يقيد بمكان...!

نابغة ذبيان